Al-Dirasat Al-Islamiyyah (Islamabad) 26:3 (1991

الإمام عبدالقاهر الجرجانى ومنهجه البلاغى

المتوفى سنة ٤٧١ هـ ـ ١٠٧٨م)

الحافظ عبدالرحيم

إن للإمام أبى بكر عبدالقاهر بن عبدالرحمن بن محمد الجرجانى جانبين بارزين فى علوم العربية وهما :

الجانب النحوى ، والجانب البلاغى :

أما الجانب النحوى فقد سبق ذكره فى الحلقة الأولى★ بالتفصيل فاعترف جمهور البلاغيين بإمامته فى علوم العربية ـ كما تواضعوا إلى الاعتراف بزعامته فى النحو الذى أخذه عن محمد بن الحسن ابن أخت أبى على الفارسى ، وكانت له فيه شهرة واسعة ... حتى كان العلماء يرحلون إليه من مختلف الأقطار ليغترفوا من فيضه وينهلوا من معينه . ومن مصنّفاته : فيه كتاب ,,المغنى،، على الإيضاح فى نحو ثلاثين مجلدا، وله ـ الى ذلك مؤلفات فى مختلف العلوم تعتبر من أمهات الكتب وعيونها .

وأما جانبه البلاغى فانه اتّجه نحوها وتحصّل عليها بكل طاقاته

© Dr Muhammad Hamidullah Library, IIU, Islamabad. http://iri.iiu.edu.pk/

فلم يلبث أن صار زعيم البلغاء ، وحجّتهم غير متنازع ، بما آتاه الله من قريحة وقّادة، وذكاء نادر، وفكر غوّاص على دقائق المعانى . وفيه يقول صاحب الطراز يحيى ابن حمزة : ,,إن عبدالقاهر أول من أسّس قواعد هذا العلم (البلاغة) وأوضح براهينه ، ورتّب أفانينه ، وسبق أزهاره من إكمامه. وقد أودع كل ذلك فى كتابيه : ,,دلائل الاعجاز،، ، و ,,أسرار البلاغة،، (١) ، كما سيأتى ذكرهما بالتفصيل ان شاء الله .

أوّل من دوّن علـوم البلاغة:

لقد سبق الجرجانى علماء فى البلاغة الذين أسّسوا هذا العلـم فنفعوا من جاء بعدهم، وكان الجرجانى خيـر من استفـاد من منهج السابقين فجاء بمنهج عجيب، جمع فيـه البـلاغة وبـوّبها وأحسـن التمثيل لها فأبان عنها، وجلاها حتى صار مصدرا ومرجعا لمن أتى بعده الى يومنا هذا .

ومن هؤلاء العلماء الذين سبقوه :

أولا : ابو عبيده محمد بن المثنى الراوية تلميذ الخليل بن أحمد المتوفى سنة ٢١١هـ (٢) وهو يعتبر أول من صنّف فى علم البلاغة . وله كتاب ,,مجاز القرآن،، .

ثانيـا : أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ الكتانى المتوفى سنة ٢٥٥هـ (٣) . امام الأدباء فى عصره ، والقدوة فى أساليبه التى اختص بها الأئمة من بعده . فصنّف كتابا أسماه ,,اعجاز القرآن،، فأشار فى كتابه إلى مسائل منه كما صنّف كتاب ,,البيان والتبيين،، فاهتم ببعض القواعد التى كثر ولوع القوم بها فى عصر كبيـان معنـى الفصـاحة والبلاغة وحسن البيان والتخلص من الخصـم ، فهـو ثانـى العلمـاء المؤسسين للبلاغة .

ثالثا : أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الـدينـورى المتـوفـى

سنة ٢٧٦هـ (٤) فهو ثالث العلماء البلاغيّين فى تاريخ الأدب والبلاغة وتأليفها ومن مؤلفاته : ,,أدب الكاتب،، ، وكتاب : ,,المعانى ،، ، و ,,الشعر والشعراء،، .

رابعا : ابو عباس محمد بن يزيد الثمالى الملقب بالمبرد المتوفى سنة ٣١٥هـ (٥) وهو رابع العلماء الذين كتبوا فى البلاغة وقد أورد آراء البلاغة فى ثنايا كتابه ,,الكامل فى اللغة والأدب،، الذى جمع فيه اللغة والأدب والبلاغة،، ، ويعد أحد أصول الأدب القديم ، يمثل منهج اللغويين القدماء والمعارف العربية المختلفة فى عصره (٦) .

وممّن برز فى علم البديع وعرف بتأسيسه هو عبدالله بن المعتز بالله بن المتوكل الخليفة العباسى المتوفى سنة ٢٩٦ هـ (٧) فقد استقصى ما فى الشعر من المحسنات وألّف كتاب البديع،، وذكر فيه سبعة عشر نوعا منها : الاستعارة والكناية والتورية والتجنيس والسجع و غير ذلک .

فكذلک قدامه بن جعفر بن قدامة البغدادى المتوفى سنة ٣٣٧هـ(٨) ,, كان أحد البلغاء الفصحاء والفلاسفة الفضلاء وألّف كتبا عديدة فى الموضوعات المختلفة ومن أهم كتبه : ,, نقد الشعر فى البديع،، (٩) المسمى ,,نقد قدامة،، وهذا كتابه ,,نقد الشعر ... ،، ضمنه عشرين بابا وهى التشبيه والتمام والمبالغة والطباق والجناس ونحو ذلک (١٠) وذكر فيه ثلاثة عشر نوعا من البديع زيادة على ما أملاه ابن المعتز فتمّمها ثلاثين نوعا . وكذلک له كتاب ,,الردّ على ابن المعتز فيما عاب به أبا تمام ،، .

وتلا هذين العالمين البارزين أبو هلال الحسن بن عبدالله العسكرى المتوفى سنة ٣٩٥هـ (١١) وألف كتاب ,,الصناعتين ،، أى صناعتى النثر والنظم ، جمع فيه خمسة وثلاثين نوعا من البديع ، وبث فيه عدة مسائل أخرى كالفصاحة والبلاغة والايجاز والاطناب والحشو

والتطويل وعدة أبواب فى نقد الشعر الى غير ذلك .

وكتابه يعتبر أول مصنّف أشير فيه إلى مسائل علوم البيان الثلاثة : المعانـى ـ والبيـان ـ والبديـع (١٢) .

ثم ظهر بعده عدة علماء من البلاغيين فى القرن الرابع الهجرى فقاموا بتأليف كتب لبيان نواحى الاعجاز فى القرآن الكريم ومنهم : أبو الحسن على بن عيسى الرمانى المتوفى سنة ٣٨٦ هـ (١٣) صاحـب ,,النكت فى اعجاز القرآن،، ، وأبو سليمان حمد بن محمد بن ابراهيم الخطابى المتوفى سنة ٣٨٨هـ (١٤) وله كتاب ,,بيان إعجاز القرآن،، و أبوبكر محمد بن الطيب الباقلانى المتوفى سنة ٤٠٣ هـ (١٥) . ألّف كتاب ,,إعجاز القرآن،، الذى ردّ فيه على الأدباء البلاغيين والمتكلمين، وأجمل الإعجاز فيمـا فى القـرآن من مغيبـات وتاريخيـات، ونظمـه الغريب، ورأى أنه نظم خارج عن معهود العرب ، وتتعذر معانيه على البشر ويشتمل على فصاحة معجزة ونفى كل شبه بينه وبين الشعـر والسجع . واضطر من أجل ذلك إلى التحامل والتكلف فى نقد الشعراء والكتاب القدماء فكتابه هامّ فى علم الكلام قليل الأهمية فى النقد،(١٦) ولـم يبـق من مصنّفـاته الّا كتـاب ,,إعجاز القرآن،، ، طبع فى القاهرة سنة ١٣١٥ هـ ـ ويروى السيوطى فى كتابه ,,الاتقان،، نقلاً عن ابن العربى : ,,إن كتاب الباقلانى هو أحسن ما كتب فى موضوعه،، (١٧) .

وفى هذه الكتب عرضت أمّهات المسائل البلاغية ... وامتـازت بخصلتين :

أولاهما : تفصيل الأقسام ، بحيـث جاءت كتـب الاعجـاز أكثـر استيعابا لوجوه البلاغة من الكتب السابقة ،

وثانيتهما : بيان الأسباب التى لأجلها كانت الأساليب البـلاغية أقوى تأثيرا فى النفس من الأساليب العادية . ولعل كتاب ,,النكت فى اعجاز القرآن ،، للرمانى هو أهمّ الكتب التى ذكرناها ، وأعظمها تأثيرا

فى المؤلفات البلاغية من بعد . فالى جانب الخصلتين اللتين سبقت الاشارة إليهما ، امتاز كتاب الرمانى بالتعريفات المحكمة الواضحة، فهو يعرف (الايجاز) مثلا بانه تقليل الكلام من غير إخلال بالمعنى ,,ويقسمه الى نوعين : إيجاز حذف وايجاز قصر، ويفرّق بين الايجاز والتقصير أو الاخلال، كما يفرق بين الاطناب والتطويل وقد أخذ مؤلفو كتب البلاغة ـ من بعد ـ هذه الأفكار كلها عن الرّمانى، كما أخذوا كثيرا من نماذجه ، كتمثيله لايجاز القصر بقوله تعالى : ,,ولكم فى القصاص حياة ،، (١٨) ومقارنته بقول العرب : القتل أنفى للقتل ،، (١٩) .

أما كتاب ,,بيان إعجاز القرآن ،، للخطابى فأقلّ تفصيلا من الناحية النظرية ، فهو يتناول الإعجاز من جهة اللفظ والمعنى ، فقوام البلاغة ثلاثة عوامل : معنى، ولفظ، ونظم يؤلف بينهما ، وقد بلغ القرآن الكريم درجة تعجز عنها قوى البشر من هذه الجهات الثلاثة، وجمع فى نظمه بين صفتى الفخامة والعذوبة، وهما صفتان تبدوان فى كلام البشر كالضدّين، فإما أن يميل الكلام الى هذه واما الى تلك (٢٠) .

ويمتاز كتاب الخطابى بعد ذلك بايراد الأمثلة الكثيرة للتدليل على قيمة اللفظ القرآنى أو التركيب القرآنى فى سياقه الخاص، مشيرا الى الفروق الدقيقة بين معانى المفردات التى تبدو مترادفة أو التراكيب التى تبدو متقاربة، ومبينا الأسرار اللطيفة فى استعمال كلمة يبدو للنظم القاصر أو غيرها أحق منها بذلك الموضع، أو تركيب يخيّل إلى من لايحسن الفهم أن فيه عدولا عن الوجه (٢١).

وكان لهذه الأفكار امتدادها لدى عبدالقاهر الجرجانى، الذى يعد مؤسس علم البلاغة ، كما سنعرف بعد قليل .

كذلك قد نقل الباقلانى عن الرمانى وجوه الإعجاز التى أوردها فى كتابه ,,النكت فى إعجاز القرآن،، ، كما نقل عن بعض الأدباء كابن

المعتز وقدامة ابن جعفر كثيرا من وجوه البلاغة التى اطلق عليها بعضهم اسم ,,البديع،، ولكن الباقلانى انفرد عن هؤلاء جميعا برأى له طرافته ووجاهته أيضا، وهو أن هذه الوجوه لاتكفى لتعليل الإعجاز، وحجته فى ذلك أنها يمكن أن تحصّل بالدراسة والمران، وإنما يعرف الإعجاز بائتلافها جميعا فى نظم لايقدر البشر أن يأتوا بمثله ، ولكنه لم يوضح مايقصده ,,بالنظم،، (٢٢) .

ويُعدّ عبدالقاهر الجرجانى المؤسس الحقيقى لعلم البلاغة فقد تناول فكرة ,,النظم،، التى أشار اليها سابقوه إشارات مبهمة فحدّد معناها بأنه استعمل التراكيب النحوية فى مواضعها اللائقة بها ، فنحن نقول : انطلق زيد وينطلق زيد وزيد ينطلق وزيد منطلق وزيد المنطلق والمنطلق زيد وفى هذه الجمل كلها تنسب الى زيد صفة الانطلاق ، ولكن لكل تركيب من هذه التراكيب دلالة خاصة بحيث لايصلح واحد منها فى المكان الذى يصلح له آخر . وقد تتّبع عبد القاهر فى كتابه ,,دلائل الاعجاز،، خصائص التراكيب النحوية المختلفة، كالأخبار بالاسم والأخبار بالفعل وتأكيد الجملة الاسمية ,,بانّ ،، واستعمال ,,الذى،، وحذف المبتداء من الجملة الاسمية ..... الخ ، وألحّ على تأكيد الفروق المعنوية التى يحدثها استعمال أسلوب دون اسلوب . ولما كان النظم راجعا الى ملاحظة الفروق المعنوية الدقيقة بين التراكيب النحوية التى تشترك فى أصل المعنى (كنسبة صفة الانطلاق إلى زيد) فقد عبّر عنه عبدالقاهر الجرجانى بأنه مراعاة (معانى النحو) ومن هذا التعبير جاءت تسمية ,,علم المعانى،، التى استخدمها البلاغيون من بعده . وكما عدّ عبد القاهر مؤسسا لعلم المعانى، فقد عدّ كذلك مؤسسا لعلم البيان، على الرغم من أن أبواب هذا العلم قد عرفت كلها (المجاز ـ الاستعارة ـ التشبيه ـ الكناية) عند سابقيه ،

ولكنه فصل القول فيها مبينا تأثيرها فى المعنى على نحو مافعل بالتراكيب النحوية . واعتبر أساليب البيان خاضعة للنظم ، بحيث لايتم جمال التشبيه أو الاستعارة الا بترتيب الكلمات فى الجملة على نحو معين .

ولقد اقتصرت جهود المؤلفين الذين تلوا عبدالقاهر الجرجانى مثل الفخر الرازى المتوفى سنة ٦٠٦هـ (٢٣) صاحب كتاب ,,نهاية الايجاز فى دراية الاعجاز،، ، والسكاكى المتوفى سنة ٦٢٦هـ (٢٤) صاحب كتاب ,,مفتاح العلوم،، ، واقتصرت جهوده على تلخيص كتابى عبدالقاهر الجرجانى ,,دلائل الاعجاز،، و ,,أسرار البلاغة،، واعادة تبويبهما، واعتبروا أن علوم البلاغة مكوّنة من علمين أساسيين ، وهما علم المعانى وعلم البيان، وعلم اضافى مكمل لهما وهو علم البديع (٢٥)

مفهوم النظم ودلالته عند الجرجانى والباقلانى والخطابى :

قال اكثر العلماء غير الجرجانى إن إعجاز القرآن فى نظمه، غير أن دلالة النظم عندهم تختلف عنها عند عبدالقاهر، ولم يذهب واحد منهم مذهبه فى أن ,,النظم هو توخى معانى النحو و أحكامه فيها بين الكلم من علاقات، وذهب كل منهم مذهبا فمنهم من جعله فى الالفاظ دون المعانى ـ ومنهم من جعل للشعر نظما، وللنثر نظما، وعلى حد قول عبدالقاهر : ,,فانك لن ترى عجبا أعجب من الذى عليه الناس فى أمر النظم ، وذلك أن مامن أحد له أدنى معرفة الا وهو يعلم أن هاهنا نظما احسن من نظم ثم تراهم إذا أنت أردت تبصيرهم ذلك تسد أعينهم وتضل عنهم أفهامهم ، وسبب ذلك ان أول شىء عدموا العلم به نفسه (٢٦) ، ومقصوده، أى عدموا العلم بالنظم نفسه قبل كل شىء ،،(٢٧) .

فرأى عبدالقاهر أن من يعتقد أن النظم شىء غير توخى معانى

النحو وأحكامه فيها بين الكلم من علاقات فقد جهل العلم بالنظم أساسا .

فالباقلانى مثلا يرى أن القرآن معجز بنظمه، غير أن تعليلاته تباعد مابينه وبين فكر عبدالقاهر عن النظم ، فهو مثلا يقول : ,,لقد كان القرآن معجزا لأن نظمه خارج عن جميع وجوه النظم المعتادة فى كلامهم ـ ومباين لأساليب خطابهم ،، (٢٨) . ثم تبّين أنه ليس من قبيل الشعر، ولا من قبيل السجع، ولا من الكلام الموزون غير مقفى (٢٩)، فللشعر عنده نظم غير السجع وهكذا (٣٠) وإلى هنا يعدّ الباقلانى مخالفا لعبد القاهر فى نقطتين جوهريتين :

أولاهما : أن النظم القرآنى عند الباقلانى مخالف وخارج عن جميع وجوه النظم عند العرب، وتلك هى مايلح عبدالقاهر على اثبات عكسها، وبيان أن القرآن جار على العرف العربى المنظم .

وثانيهما : أن الباقلانى جعل الشعر أسلوبا من النظم وكذلك جعل السجع . وهكذا وما إلى هذا ذهب عبدالقاهر فأنه يرى أن النظم فى جميع فنون اللغة وضروبها هو توخى معانى النحو وأحكامه فيما بين الكلام من علاقات فالنظم طريقته فى جميع الفنون القولية واحدة (٣١) .

أما الخطابى فانه يرى أن القرآن معجز بأنواع ثلاثة :

(١) الالفاظ (٢) المعانى (٣) النظوم

وتفسير ذلك عنده أنه معجز بمفرد الفاظه التى منها يتركب الكلام، وبودائعه التى هى معانيه . وبملابسه التى هى نظوم تأليفه .

و الى هذا ذهب عبدالقاهر الجرجانى ـ فالكلام عنده ليس بلفظه ولا بمعناه وانما بدلالته التى تأتى نتيجة لحسن التعليق بين مفرداته طبقا لمعانى النحو واحكامه فيما بين الكلم من علاقات (٣٢) .

ولنستمع إلى باحث آخر يقول :

,,عبدالقاهر رسم فى كتابه ,,دلائل الاعجاز،، طريقا للبحث النحوى تجاوز آواخر الكلم وعلامات الاعراب وبيّن أن للكلم نظما وأن رعاية هذا النظم واتباع قوانينه هى السبيل الى الابانة والافهام، وأنه اذا عدل بالكلام عن سنن هذا النظم واتباع قوانينه لم يكن مفهما معناه ولا دالا على مايراد منه ،،(٣٣) .

وخلاصة رأيه أن الكلام ليس بلفظه ولا بمعناه ، وانها هو بدلالته والعبرة بحسن الدلالة وتمامها ويكون ذلك بان ,,يأتى المعنى من الجهة التى هى أصح لتأديته ، ويختار له اللفظ الذى هو أخص به، واكشف عنه، وأتم له (٣٤) .

فالالفاظ يضم بعضها الى بعض فيعرف من بينها علم شريف وهو علم النحو الذى هو ترتيب خاص للكلمات داخل جمل وتراكيب يتبعه إعراب وهذا ماسماه ,,النظم،، الذى هو توخى معانى النحو واحكامه فيها بين الكلام من علاقات .

وإن طالب دليل الاعجاز من نظم القرآن هو من لم يطلبه فى معانى نحو واحكامه ووجوهه وفروقه، ولم يعلم انها معدنه ومعانيه وموضعه ومكانه ، وأنه مستنبط له سواها ، وان لاوجه لطلبه فيما عداها غارٌّ نفسه بالكاذب من الطمع، ومسلم لها إلى الخدع، وأنه إن أبى أن يكون فيها، كان قد أبى أن يكون القرآن معجزا بنظمه .

فبالنظم وفيه تثبت معجزة القرآن، وتلك هى نظرية عبدالقاهر فى الاعجاز، ونزعته التجديدية فى النحو (٣٥) ،

ومن المؤكد أن عبدالقاهر الجرجانى بلاغى فألف فى اللغة والنحو والبلاغة وتقوم شهرته على كتابيه : ,,دلائل الاعجاز ،، و ,,أسرار البلاغة،، ـ فى البلاغة ـ وتناول فى ثانيهما السجع والجناس والسرقة والحقيقة والمجاز والاستعارة والتشبيه والتمثيل ، التى زاد عليها فى

الكتاب الأول شرح مذهبه فى النظم ومظاهره من تقديم وتأخير وحذف وفصل ووصل وقصر واختصاص ويعتمد مذهبه على نظم الـكلام سر بلاغته ، وأن الألفاظ خدم للمعانى وأنها لاتكون بليغة حتى ترتـب وتؤلف فى عبارات (٣٦) .

دلائل الاعجاز و أسرار البلاغـة :

وهما أحفل كتابيه-فيما عرف بعد ـ بالمعانى والبيان إذ قد جرى الشيخ فيهما شوطا لم يبلغه أحد ممّن سلف ، وقد أبان الشيخ عن ذلك فى إطناب ممتع وعبارات مصطفاة مع سلاسة وجوده ومع عرض لكثير من الأمثلة فى أسلوب طلى خطابى يملك الأسماع ، ويستولى على القلوب بعد أن كانت الكتب قبلة تقتصر على سرد القواعد والاحكام فى عبارات اصطلاحية جافة ، تنكرها بلاغة الأساليب العربية الفصيحة . ومن هنا عُدّ الامام عبدالقاهر واضع هذا الفنّ عند الجمهرة العظمى من علماء البلاغة (٣٧)، كما جمع متفرّقاتها ، وأقام بناءها على أسس متينة، وركّز دعائمها على أرض جدد لاتنهار، وأملى من القواعد ما شاء الله أن يملى فى كتابيه : ,,الدلائل و ,, أسرار البلاغة،، . وأحكم بنيانه بضرب الأمثلة والشواهد ، حتى أناف بها على اليفاع، وقرن فيهما بين العلم والعمل اذا رأى أن مسائل الفنون لايستقر لها قرار الا بكثرة الأمثلة والنماذج ، فالصور الاجمالية التى تؤخذ من القواعد، ان لم تؤيدها الصور التفصيلية التى تستفاد من النماذج ، لاتتمثل فى الاذهان حق التمثل، ولا تنجلى حقيقتها تمام الانجلاء (٣٨) .

سبب تأليف دلائل الاعجاز :

وذكر الامام عبدالقاهر فى كتابه ,,دلائل الاعجاز ،، أنه يقول : ,,ان التوق ★ الى أن تقرّ الأمور قرارا وتوضع الأشياء مواضعها ، والنزع الى بيان مايشكل ، وحل ماينعقد ، والكشف عما يخفى، وتلخيص الصفة

حتى يزداد السامع ثقة بالحجة واستظهارا على الشبهة، واستبانة للدليل ، وتبيّنا للسبيل شيء فى سوس ★ العقل وفى طباع النفس اذا كانت نفسا ولم أزل منذ خدمت العلم انظر فيا قاله العلماء فى معنى ,,الفصاحة،، وتفسير المراد بها ، فأجد بعض ذلک كالرمز والإيماء ، والاشارة فى خفاء ، وبعضه كالتنبّه على المكان المخبىء ليطلب ، وموضع الدقيق ليبحث عنه فيخرج ، وكما يفتح لک الطريق الى المطلوب لتسلكه ، وتوضع لک القاعدة لتبنى عليها . ووجدت المعدّل على أن ههنا نظما وترتيبا ، وتأليفا وتركيبا وصياغة وتصويرا ، ونسجا وتحبيرا، وأن سبيل هذه المعانى فى الكلام الذى هى مجاز فيه سبيلها فى الأشياء التى هى حقيقة فيها ، وأنه كما يفضل هناک النظم النظم ، والتأليف التأليف، والنسج النسج والصياغة الصياغة ، تم يعظم الفضل ، وتكثر المزية ، حتى يفوق الشيء نظيره والمجانس له درجات كثيرة ، وحتى تتفاوت القيم والتفاوت الشديد ، كذلک يفضل بعض الكلام بعضا، ويتقدّم منه الشيء الشيء ثم يزداد فضله ذلک ويترقى منزلة فوق منزلة، ويعلو مرقبا بعد مراقب ، ويستأنف له غاية بعد غاية ، حتى ينتهى إلى حيث تنقطع الأطماع ، وتحسر الظنون ، وتسقط القوى ، وتستوى الأقدام فى العجز (٣٩) .

ومن المعلوم ان لامعنى لهذه العبارات وسائر مايجرى مجراها . مما يفرد فيه اللفظ بالنعت والصفة ، وينسب فيه الفضل والمزّية اليه دون المعنى ، غير وصف الكلام بحسن الدلالة وتمامها فيها له كانت دلالة، ثم تبرّجها فى صورة هى أبهى وأزين وآنق وأعجب وأحق بأن تستولى على هوى النفس ، وتنال الحظّ الأوفر من ميل القلوب ، وأولى بأن تطلق لسان الحامد، وتطيل رغم الحاسد . ولاجهة لاستعمال هذه المضال غير أن تأتى المعنى من الجهة التى هى أصّح لتأديته، وتختار

له اللفظ الذى هو أخصّ به ، وأكشف عنه وأتم له ، واحدى بأن يكسبه نبلاء ، ويظهر فيه مزّية .

وإذا كان هذا كذلک فينبغى أن ينظر الى الكلمة قبل دخولها فى التأليف وقبل أن تصير الى الصورة التى بها يكون الكلام اخبارا وأمرا ونهيا وإستخبارا وتعجبا ، وتؤدّى فى الجملة معنى من المعانى التى لاسبيل الى افادتها إلا بضمّ كلمة إلى كلمة ، وبناء لفظة على لفظة .

هل يتصّور أن يكون بين اللفظتين تفاضل فى الدلالة حتى تكون هذه أدلّ على معناها الذى وضعت له من صاحبتها على ماهى موسومة به ، حتى يقال إن ,,رجلا ،، أدلّ على معناه من ,,فرس ،، على ما سمّى به وحتى يتصوّر فى الاسمين يوضعان لشىء واحد أن يكون هذا أحسن نبأ عنه وأبين كشفا عن صورته من صورته من الآخر ، فيكون ,,الليث،، مثلا أدلّ على السبع المعلوم من ,,الأسد،، وحتى انّا لو أردنا الموازنة بين لغتين كالعربية والفارسية ساغ لنا أن نجعل لفظة ,,رجل ،، أدلّ على الآدمىّ الذكر من نظيره فى الفارسية ؟

وقد علمت اطباع العلماء على تعظيم شأن ,,النظم ،، وتفخيم قدره، والتنويه بذكره ، وإجماعهم أن لا فضل مع عدمه ، ولا قدر لكلام إذا هو لم يستقم له ، ولو بلغ فى غرابة معناه مابلغ ... واعلم ان ليس ,,النظم ،، الا أن تضع كلامک الوضع الذى يقتضيه ,,علم النحو،، وتعمل على قوانينه وأصوله ، وتعرف مناهجه التى نهجت (٤٠) فلا تزيع عنها ، وتحفظ الرسوم التى رسمت لک ، فلاتخل بشىء منها .

وذلک أنا لانعلم شيئا يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر فى وجوه كل باب وفروقه ، فينظر فى ,,الخبر،، إلى الوجوه التى تراها فى قولک : ,,زيد منطلق ،، و ,,زيد ينطلق ،، و ,,ينطلق زيد ،، و ,,منطلق زيد ،، ، ولا زيد المنطلق،، و ,,المنطلق زيد،، و ,,زيد هو المنطلق،،و,,زيد هو منطلق،،.

وفى ,,الشرط والجزاء ،، الى الوجوه التى تراها فى قولك : ,,تخرج اخرج ،، وان خرجت خرجت ،، و ,,ان تخرج فأنا خارج ،، و ,,انا خارج ان خرجت ،، و ,,أنا ان خرجت خارج ،، .

وفى ,,الحال ،، إلى الوجوه التى تراها فى قولك : ,,جاءنى زيد سرعا،، و جاءنى يسرع،، ، و ,,جاءنى وهو مسرع أو وهو يسرع ،، و ,,جاءنى قد أسرع،، و جاءنى وقد أسرع ،، .

فيعرف لكل من ذلك موضعه ، ويجىء به حيث ينبغى له .

وينظر فى ,,الحروف ،، التى تشترك فى معنى ، ثم ينفرد كل واحد منها بخصوصية فى ذلك المعنى ، فيضع كلا من ذلك فى خاص معناه، نحو أن يجىء به ,,ما،، فى نفى الحال ، بـ ,,لا ،، اذا أراد نفى الاستقبال ، وب ,,إن ،، فيما يترجح بين ان يكون وأن لايكون ، وب ,,إذا ، فيما علم أنه كائن .

وينظر فى ,,الجمل،، التى تسرد ، فيعرف موضع الفصل فيها من موضع الوصل ، ثم يعرف فيما حقّه الوصل موضع ,,الواو،، من موضع ,,الفاء،، ، وموضع ,,الفاء،، من موضع ,,ثم ،، ، وموضع ,,أو،، من موضع ,,أم ،، ، وموضع ,,لكن،، من موضع ,,بل،، .

ويتصرف فى التعريف ، والتفكير ، والتقديم ، والتأخير ، فى الكلام كله، وفى الحذف ، والتكرار، والإضمار ، والاظهار ، فيصيب بكل من ذلك مكانه ، ويستعمله على الصحة وعلى ماينبغى له .

هذا هو السبيل ، فلست بواجد شيئا يرجع صوابه ان كان صوابا، وخطؤه ان كان خطأ ، إلى ,,النظم،، ويدخل تحت هذا الاسم ، إلا وهو معنى من معانى النحو قد أصيب به موضعه ، ووضع فى حقه . أو عومل بخلاف هذه المعاملة، فأزيل عن موضعه ، واستعمل فى غير ماينبغى له ،

فلاترى كلاما قد وصف بصحة نظم أو فساده ، أو وصف بمزّية وفضل فيه ، إلا و أنت تجد مرجع تلك الصحة وذلك الفساد وتلك المزّية وذلك الفضل الى معانى النحو وأحكامه ، ووجدته يدخل فى أصل من أصوله ، ويتصل بباب من أبوابه (٤١) .

ولقد ظهر منهجه البلاغى من هذين الكتابين : ,,الدلائل،، و ,,الأسرار،، فيشهد أنه عالم بلاغى كما اتضح لنا أن الجرجانى قد قطف ثمار من سبقه من علماء البلاغة لكنه أبدع فى تصنيفه وصار مدرسة لمن أتى بعده .

وأما الذين جاؤا بعد الجرجانى واستفادوا من منهجه البلاغى هم :

أولا : الزمخشرى :

تبع أثر عبدالقاهر الجرجانى أستاذ المفسرين ابو القاسم محمود ابن عمر جار الله الزمخشرى المتوفى سنة ٥٣٨ هـ ـ ٤٧هـ ، وألّف تفسيره الكشاف نحا فيه نحو الغرض المقصود من تفسير التنزيل ، وهو اظهار أسراره وشرح وجه اعجاز ببيان وفاء دلالته على المراد وكشف خصائصه ومزاياه التى استأثربها حتى بلغ هذه المرتبة . وحتى تحدّى البشر بأنهم ,,لن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا،، (٤٢) وغنى عن البيان أنه لن يصل الى تلك المنزلة الا من أتاه الله فطرة سليمة ... وفكرا ثاقبا وبرهانا ساطعا وقلبا أطوع له من بنانه حتى تباح له بواضع البرهان ، وبديع البيان، أن يوضح خصائص التراكيب ، ولطائف الأساليب التى هى من أسرار التنزيل ، وبذا أبان فى غرض كلامه كثيرا من قواعد هذه الفنون التى اتخذها من جاء بعد ، دستور الكلام فى كثير من سائلها (٤٣) .

ولا يقتصر فى تفسيره ,,الكشاف ،، على الشرح النحوى فحسب بل يعنى أيضا عناية كبيرة بابراز مواطن البلاغة فأثبت بذلك أنه يؤيد

القول باعجاز القرآن ... كما أنه التفت التفاتا خاصا الى الناحية اللغوية (٤٤) .

ومن مؤلفاته : أساس البلاغة ، والمفصل ، ومقدمة الأدب، والقسطاس له ديوان شعر ، ونثر ومقامات (٤٥) .

ثم جاء بعد من سبق ذكرهم العلامة ابو يعقوب يوسف السكاكى المتوفى سنة ٦٢٦ هـ (٤٦) وألف كتاب ,,مفتاح العلوم ،، وجمع فى القسم الثالث منه زبدة ماكتبه الأئمة قبله فى هذه الفنون ونظم لآلئها المتفرقة فى تضاعيف كتبهم ، وأحاط بكثير من قواعدها المبعثرة فى الامهات ، ورتّبها أحسن ترتيب وبوبّها خير تبويب وفصل فنون البيان الثلاثة بعضها من بعض (٤٧) .

وقد اختصره مؤلفه فى كتابه الآخر سماه ,,التبيان،، ولخصّه بعض المتأخرين فى أمّهات مشهورة ، كما فعل ابن مالك فى كتابه ,,المصباح،، ، والخطيب جلال الدين محمد بن عبدالرحمن القزوينى المتوفى سنة ٧٣٩ هـ (٤٨) فى كتابيه ,,تلحيص المفتاح ،، و ,,شرح الايضاح،، والأخير مؤلف جليل ، جمع فيه مؤلفه ,,خلاصة المفتاح،، ، و ,,دلائل الأعجاز ،، و ,,أسرار البلاغة،، ، و ,,سرّ الفصاحة ،، لابن سنان الخفاجى ،، (٤٩) .

وهكذا أيضا نلاحظ أن الجرجانى كان محطة وسيطة لمن سبقه ولمن تلاه وأنه تأثر بمن قبله وأثر فيمن جاء بعده فبقى هو الحلقة التى يعتمد عليها فى علوم البلاغة وتاريخها ويبقى هو أبرز عالم فيها دون نزاع أو شك .

والله ولى التوفيق

الهـــوامـش

★ لقد نشر هذا البحث فى العدد الرابع من المجلد الخامس والعشرين .

١ ـ حامد عونى ، المنهاج الواضح فى البلاغة الهيئة العامة لشؤن المطابع الازهرية ـ القاهرة ، سنة ١٩٧٨م ص : ١٥ ـ ١٦ .

٢ ـ عمر رضا كحالة ، معجم المؤلفين ، دار احياء التراث الاسلامى ، بيروت ، ٣٠٩/١١ ، وياقوت الحموى ، معجم الأدباء ، دار الفكر ، بيروت ، ط : ٣ سنة ١٩٨٠ ، ١٦٠/١٩ .

٣ ـ نفس المصـدر : ٧٤/١٦ .

٤ ـ الأعـلام : ٤ ١٣٧ .

٥ ـ حاجى خليفة ، كشف الظنون ، منشورات مكتبة المثنى ، بيروت ، ١٣٨٢/٢ .

٦ ـ محمد شفيق غربال ، الموسوعة العربية الميسرة ، دار احياء التراث العربى ، بيروت ، ١٦٤٠/٢ .

٧ ـ خير الدين الزركلى ، الأعلام ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١١٨/٤ .

٨ ـ نفس المصدر ، ١٩١/٥ .

٩ ـ ابن النديم ، الفهرست ـ المطبعة الرحمانية بمصر ، ص : ١١٨ .

١٠ ـ كشف الظنون ، ٩٧٣/٢ .

١١ ـ الأعلام : ١٩٦/٢ ، ومعجم الأدباء ٢٦/٨ .

١٢ ـ أحمد مصطفى المراغى ، علوم البلاغة ، دار القلم ، بيروت ، ص ، ١٠ .

١٣ ـ الأعـلام : ٣١٧/٤ .

١٤ ـ نفس المصدر : ٢٧٣/٢ .

١٥ ـ نفس المصدر : ١٧٦/٦ .

١٦ ـ الموسوعة العربية الميسرة : ٣١٣/١ ـ ٣١٤ .

١٧ ـ انظر الاتقان ، طبعة القاهرة سنة ١٣١٥ هـ ـ ١٩٧ م ، ١٢٤/٢ .

١٨ ـ سورة البقرة : الآية : ١٧٩ .

١٩ ـ وزارة المعارف السعودية ، البلاغة والنقد للصف الثانى الثانوى السعودية ط : ١ سنة ١٩٧٧ م ، ص : ١٧٠ .

٢٠ ـ انظر نفس المصدر ص : ١٧٢ .

٢١ ـ انظر نفس المصدر ونفس الصفحة .

٢٢ ـ انظر نفس المصدر ، ص : ١٧٢ ـ ١٧٣ .

٢٣ ـ انظر نفس المصدر

٢٤ ـ الأعلام : ٢٢٢/٨ .

٢٥ـ انظر البلاغة والنقد ، ص : ١٧٣ ـ ١٧٤ .

٢٦ ـ الجرجانى ، عبدالقاهر ، دلائل الاعجاز ، ص : ٤١٨ (نقلا : عن عالم اللغة عبدالقاهر الجرجانى، ص : ١٦٥) .

٢٧ ـ انظر هامش دلائل الاعجاز ص : ٤١٨ .

٢٨ ـ الباقلانى ، أبوبكر محمد بن الطيب ، اعجاز لقرآن ص : ٧٥، درويش (دكتور) ، والنظم القرآنى فى كشاف الزمخشرى ص : ٨ .

٢٩ ـ البدراوى زهران (دكتور) ، عالم اللغة عبدالقاهر ,,المفتن فى العربية ونحوها،، ـ دار المعارف ـ القاهرة ط : ٤ سنة ١٩٨٧م ص : ١٦٦ .

٣٠ ـ اعجاز القرآن ص : ٧٥، والنظم القرآنى ص : ٨ .

٣١ ـ ثلاث رسائل ص : ٣٢ .

٣٢ ـ عالم اللغة عبدالقاهر ، ص : ١٦٦ .

٣٣ ـ إبراهيم مصطفى ، احياء النحو ، ص : ١٦ .

٣٤ ـ دلائل الاعجاز ص : ٣٥ ، نقلاً : عن عالم اللغة ص : ١٦٣ .

٣٥ ـ عالم اللغة ص : ١٦٣ ـ ١٦٤ .

٣٦ ـ انظر عالم اللغة عبدالقاهر الجرجانى ص : ١٦٣ ـ ١٦٤ .

٣٧ ـ انظر المنهاج الواضح فى البلاغة : ١٦ .

٣٨ ـ علوم البلاغة : ص : ١٠ .

٣٩ ـ دلائل الإعجاز ، ص : ٣٤ ـ ٣٥ .

٤٠ ـ أى طرقه التى رسمت .

٤١ ـ دلائل الاعجاز ص : ٨٠ ـ ٨٣ .

٤٢ ـ سورة الاسراء ، الآية : ٨٨ .

٤٣ ـ علوم البلاغة ، ص : ١٠ ـ ١١ .

٤٤ ـ الموسوعة العربية : ٩٢٦/١ .

٤٥ ـ نفس المصدر .

٤٦ ـ الأعلام : ٢٢٢/٨ .

٤٧ ـ علوم البلاغة ص : ١١ .

٤٨ ـ الأعلام : ١٩٢/٦ .

٤٩ ـ علوم البلاغة ، ص : ١٠ ـ ١١.

* ـ التوق : (تاق اليه توقا) اشتاق إليه .

* ـ سوس : الطبع والأصل .

المصـادر والمراجـع

١ ـ التلخيص فى علوم البلاغة : للامام جلال الدين بن عبدالرحمن القزوينى الخطيب ، دار الفكر العربى .

٢ ـ مفتاح العلوم : ابو يعقوب يوسف السكاكى ، دار الكتب العلمية ، بيروت .

٣ ـ دلائل الأعجاز : لعبد القاهر الجرجانى .

٤ ـ اسرار البلاغة : لعبد القاهر الجرجانى

٥ ـ البديع لابن المعتز .

٦ ـ الصناعتين لأبى هلال العسكرى .

٧ـ النكت فى اعجاز القرآن للرمانى (ابو الحسن على بن عيسى)

٨ ـ البيان والتبيين للجاحظ
٩ ـ المعانى لابن قتيبة .
١٠ ـ الكامل للمبرد .
١١ ـ البيان فى اعجاز القرآن للخطابى .
١٢ ـ اعجاز القرآن للباقلانى .
١٣ ـ اعجاز القرآن لابى عبيدة معمر بن المثنى الراوية .
١٤ ـ نقد الشعر لقدامة بن جعفر تحقيق كمال مصطفى الخانجى ، ط : ٣ بالقاهرة .